

تحديات الأمن الفكري و معوقاته في ضوء الثقافة الدينية

بحث مقدم للمؤتمر الوطني الأول للأمن الفكري
«المفاهيم والتحديات»
في الفترة من ٢٢-٢٥ جماد الأول ١٤٣٠ هـ
كرسي الأمير نايف بن عبد العزيز لدراسات
الأمن الفكري بجامعة الملك سعود

بدر الحسن القاسمي

نائب رئيس مجمع الفقه الإسلامي بالهند

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمن الفكري و معوقاته

في ضوء الثقافة الدينية

الإسلام دين "السلام" والإيمان مشتق من "الأمن" و لفظ "الأمن" يستخدم نقيضاً "للخوف". يقول الأصفهاني: أصل الأمن طمأنينة النفس و زوال الخوف.^(١) و يقول الجرجاني: "الأمن" هو عدم توقع مكروه في الزمن الآتي.^(٢)

و قد ورد في القرآن الكريم لفظ "الأمن" بصيغ مختلفة، والسياق يحدد المعنى في كافة الاستعمالات و مواضع ورود، كما أشير إلى أدوات الأمن ذات طابع مادي كانت أو غير مادي فقد جاء في القرآن الكريم:

{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} (الأنعام: ٨٢)

و ورد: {أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جَوْعٍ وَأَمَّنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ} (قريش: ٤)

و في قول الله عز وجل: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، آدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ} (الحجر:

٤٦) أشير إلى أن "التقوى" هي من أدوات الأمن.

و في قوله تعالى: {وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ} (الحجر: ٨٢)

ذكرت حالة "الأمن".

كذلك قول الله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ

مَكَانٍ} (النحل: ١١٢)

و قوله تعالى: {إِذْ يُعَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمْنَةً مِّنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً} (الأنفال: ١١)

و قيل عن "الأمن": أنه تعبير عن سنة إلهية في خلقه و في تديره للكون.

و قيل: إن الأمن حالة شعورية إذ لا قيمة للأمن إن لم يوجد الإحساس به، ثم إن "الأمن"

كما يرتبط بالزمان كذلك يرتبط بالمكان أيضاً كما في قوله تعالى: {إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا} و قوله سبحانه: و قوله سبحانه: {أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحْبِبِي ~ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَّزَقًا مِّنْ لَّدُنَّا} (القصص: ٥٧)

(١) المفردات ٢٥.

(٢) كتاب التعريفات ٣٥.

إن الشريعة الإسلامية كما يقول الإمام ابن القيم رحمه الله:
"مبناها وأساسها مصالح العباد في المعاش والمعاد" وهي عدل كلها، ورحمة كلها، و مصالح كلها، و حكمة كلها.(١)

و إن "الأمن الفكري" هو أساس الأمن الاجتماعي والأمن السياسي، و به يمكن تحقيق السعادة للبشرية، و إن تحقيق "الأمن الفكري" في المجتمع يتطلب الجهد المتواصل من أجل تنشئة الجيل الناشئ على سلامة الفكر، و قيمة الأمن، و روح المساحة والمسألة، و "بالأمن الفكري" فقط يمكن بناء مجتمع متماسك و جيل مبدع، و منتج، يسعد به الناس و تنهض به الأمة.
و إن "الأمن الفكري" يتحقق بصحة الاعتقاد، والتفقه في الدين، والتربية الواعية و بناء الشخصية الإسلامية.

و إن الإسلام يقوم بترسيخ عقيدة التوحيد في النفوس لأنها هي جوهر الإيمان، و أن الإقرار بالعبودية لله وحده و نفيها عن غيره، والإيمان بألوهيته و ربوبيته يحرر الإنسان من الخضوع أمام المظاهر الكونية، و ينقذه من عبادة الطواغيت من الجن والإنس، و يزيل من قلبه خوف انقطاع أسباب الحياة، و مصادر الرزق. يقول الله عز وجل:

{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} (الطلاق: ٢ - ٣)

فالمؤمن بالله وحده يتعد عن عباده الأوثان، و عن السجود أمام مظاهر الكون، كما يتجنب الخضوع أمام الجماهير والشعوب، أو لتمائيل القومية والوطنية الجامحة، ولا ترعبه السلطات السياسية الطاغية شريطة التزامه بالحق والصدق.

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} (الروم: ٣٠)

إن الإيمان الصحيح القوي المتدفق يعطي الإنسان الشعور بالأمان و بالطمأنينة والسكينة، و أن الإنسان ما لم يشعر بالهدوء والاستقرار لا يمكن أن يكون عنصرا فعالا في المجتمع و إن القلق والاضطراب والشتات الفكري في الأفراد تنعكس سلبا على صلاح المجتمع و تؤخر خطط التنمية والتطوير.

كما أن الإسلام يحمي الإنسان من حقوق الضرر والأذى، يقول النبي صلى الله عليه وسلم:
المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده، والمؤمن من آمنه الناس على دماهم و أموالهم(٢) و من القواعد الفقهية الأساسية: "لا ضرر ولا ضرار" و بنى عليها الفقهاء القواعد الأخرى مثل: الضرر يزال".

(١) إعلام الموقعين ٣/٣.

(٢) مسند أحمد ١/١٨.

و يحث على احترام حرمان المسلمين، و عدم الاعتداء عليها فيمنع التجسس على المسلم في الحالات الاعتيادية، و يجذب الستر عليه إذا كان خطؤه غير متعد على المجتمع كما يمنع من إساءة الظن إلى أحد، أو ذكر أحد بسوء في غيابه.

يقول الله سبحانه:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا، يُجِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} (الحجرات: ١٢)

هذه الآية الكريمة تضع الإنسان المسلم في سياق أمني فلا تتطرق إليه الظنون والأوهام و لا يقوم أحد بالتجسس عليه ولا يذكره أحد بسوء في غيابه.

و فيها تأكيد على تنظيف المشاعر والضمان فلا يكون الإنسان عرضة لهواجس، والشكوك والظنون، فيعيش الإنسان آمناً على بيته، آمناً على أسراره، آمناً على عوراته، فالحرمان والأنفس مصونة، والبيوت والأسرار، والعورات مناطق محظورة على العابثين والمتطفلين. (١)

إن الدين، والنفس، والمال، والعرض، والعقل هي من الضروريات التي يجري فيها التدافع بين البشر و حولها تدور الأنشطة والاهتمامات، و من أجل الحفاظ عليها والتنافس فيها تدور المعارك، و تحدث الفتن والكوارث في المجتمعات البشرية.

فما لم يكن الضمان لحماية الضروريات الخمس، و لم تتوفر القوة الرادعة للذود عنها لا يتحقق الأمن في المجتمعات البشرية و لن يسعد الإنسان مهما حقق من تطورات في مجال العلوم والتكنولوجيا.

من أجل ذلك أعتبرت هذه الأشياء من الأمور الأساسية في تشريع الأحكام، وجعلت حمايتها من مقاصد الشريعة الأساسية، فوضعت الحدود لحمايتها و شرعت العقوبات لرد الأخطار عنها فوضع جزاء قتل النفس متعمداً القصاص، و جعلت عقوبة سرقة المال المحرز قطع اليد، كما وضعت عقوبة من يعبث بالدين فيجعل الإسلام بالدخول فيه عن اختيار ثم الخروج منه موضع سخرية واستهزاء أن يقتل لارتداده عن الدين، كما أن من يتعاطي المخدرات و يشرب الخمر فيعاقب و يقام عليه الحد.

كذلك الشخص الذي يعتدي على الأعراض فيمارس الرذيلة و يثبت وقوعه في الزنا فيقام عليه حد الزنا كما هو منصوص في القرآن والسنة النبوية المطهرة، فيرجم إن كان محصناً، و يجلد مائة جلدة إن كان غير محصن.

(٢) راجع في ظلال القرآن.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله:

إن الأمن مقصود به سلامة النفس والمال والعرض والدين والعقل و هي الضروريات الخمس التي لا بد منها لقيام مصالح الدين والدنيا، و قد اتفق الفقهاء على أن أمن الإنسان على نفسه و ماله و عرضه شرط في التكليف بالعبادات.(١)

فالأمن نعمة عظيمة من أجل ذلك امتن الله سبحانه على قريش حينما قال:

{وَأَمَّنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ} (قريش: ٤)

و إن قوله تعالى:

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} (النحل: ١١٢)

يوحى إلى أن نعمة الأمن لا تقل أهمية من نعمة الطعام والشراب للإنسان، فلا تهنا الحياة ولا يطيب العيش إلا بالأمن، ولا تزدهر الحضارة ولا يحصل التقدم والرفق إلا بالأمن، يقول الإمام الماوردي:

"إذا ساد الأمن واطمأنت النفوس وانصرفت إلى المعير المثمر، والإنتاج الذي ينشر الرخاء في ربوع الأمة فتتسع الأرزاق و تقل الأزمات والقلقل.(٢)

و لتحقيق الأمن الفكري اعتنى الإسلام قبل كل شيء على ترسيخ العقيدة الصحيحة و غرس الإيمان في النفوس لأن الإيمان الصادق هو أمان و ضمان لسلامة الفرد والجماعة.

و أكد على قيمة النفس الإنسانية و بين كرامة الإنسان و بين الحلال والحرام ثم نبّه على الالتزام بحدود الله سبحانه يقول الله عز وجل: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا} (البقرة: ١٨٧)

و جعل قتل النفس جريمة كبرى و وضع لردع القتل نظام القصاص.

وقال: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} (البقرة: ١٩٧)

و قال: {أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} (المائدة: ٣٧)

فجعل قتل شخص بمثابة قتل الإنسانية جمعاء، و هذه غاية في التأكيد على قيمة الحياة الإنسانية، و بيان منزلتها و كرامتها.

يقول الإمام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي مبينا حكمة تشريع قوانين المظالم:

"إعلم أن أعظم المقاصد التي قصدت ببعثه الأنبياء عليهم السلام دفع المظالم من بين الناس فان نظامهم يفسد حالهم و يضيق عليهم ثم يقول:

(١) المستصفى ٢٨٧/١.

(٢) الأحكام السلطانية ص: ١٨.

والمظالم ثلاثة أقسام: تعد على النفس، و تعد على أعضاء الناس و تعد على أموال الناس فاقترضت حكمة الله أن يزجر عن كل نوع من هذه الأنواع بزواجر قوية تردع الناس عن أن يفعلوا ذلك مرة أخرى.

و يقول: فأعظم المظالم القتل، و هو أكبر الكبائر، أجمع عليه أهل الملل قاطبتهم، و ذلك لأنه طاعة النفس في داعية الغضب، و هو أعظم وجوه الفساد فيما بين الناس، و هو تغيير خلق الله، و هدم بنيان الله و مناقضة ما أراد الحق في عباده من انتشار نوع الإنسان.^(١) و يقول الإمام الدهلوي:

إعلم أن المعاصي ما شرع الله فيه الحد، و ذلك كل معصية جمعت وجوها من المفسدة بأن كان فسادا في الأرض واقتضابا على طمأنينة المسلمين، و كانت لها داعية في نفوس بني آدم لا تزال تهيج فيها و لها ضراوة لا يستطيعون الإقلاع منها بعد أن أشربت قلوبهم بها. فمثل هذه المعاصي لا يكفي فيها الترهيب بعذاب الآخرة بل لابد من إقامة ملامة شديدة عليها و ايلام ليكون بين أعينهم ذلك فيردعهم عما يريدون كالزنا.^(٢)

كذلك شرع الله الجهاد لإقامة الأمن في العالم والسلام في المجتمع يقول الإمام الدهلوي: إعلم أن أتم الشرائع و أكمل النواميس هو الشرع الذي يؤمر فيه بالجهاد و ذلك لأن تكليف الله عباده بما أمر و نهي مثله كمثل رجل مرض عبده فأمر رجلا من خاصته أن يسقيهم دواء.^(٣) لقد تنوعت الدراسات حول الأسباب التي تدفع الإنسان إلى ارتكاب الجرائم و ممارسة العنف أو الإخلال بالأمن كما تنوعت الآراء حول السبل الكفيلة لمنع الجريمة سواء كانت تمس الأفراد أو تلحق الضرر بالمجتمع أو تخل بالأمن العام.

فهناك أسباب نفسية و جسدية و وراثية و اقتصادية و اجتماعية و دينية و كل ذلك تؤثر في بناء الإنسان كما تؤثر في تنشئته تنشئة غير سوية إذ أنشأ الإنسان في بيئة فاسدة.

إن كوامن النفس الإنسانية لا يعلمها بدقة و إحاطة إلا الله الخالق سبحانه.

{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (الملك: ١٤)

فهو الذي يطلع على سرائر القلوب، و دقائق النفوس و يعلم خائنة الأعين، و يرى ما تخفيه الصدور.

إن النظر في الإحصائيات التي تصدرها جهات الرصد والمتابعة عن الجرائم عموما يؤكد أن الدول غير المسلمة خاصة الدول التي تعتبر راقية و متطورة مازالت في رأس القائمة في معدل الجرائم.

(١) حجة الله البالغة ١٥١/٢.

(٢) حجة الله البالغة ١٥٨/٢.

(٣) حجة الله البالغة ١٧٠/٢.

ثم إن الجريمة أصبحت اليوم أكثر قوة و عنفا و انتشارا بفضل العولمة التي وضعت بأيدي المجرمين التقنية الحديثة من الاتصالات والمعلومات تسهل لهم الاستفادة من هذه المعطيات بكل ذكاء و مهارة.

إن إحدى العصابات قد استثمرت حوالي ٥٠٠ مليون دولار لإنشاء قاعدة تكنولوجية خاصة بها، و إن محاولات العصابات لم تقف على هذا الحد بل عمت إلى وضع برنامج تنصت حديث يمكن عن طريق الإصغاء إلى الأحاديث الهاتفية و رسائل الفاكس، بالإضافة إلى التحكم في خطوط الطيران القادمة والمغادرة و يمكن لهذه الأجهزة أن تخزن ملايين المحادثات الهاتفية.(١)
إن العقوبة هي آخر ما تلجأ إليها الشريعة الإسلامية بعد استنفاد كافة السبل في إصلاح الأفراد.

يذكر في تعريف العقوبة بأنها تأديب و استصلاح و زجر يختلف بحسب اختلاف الذنب.(٢)
وقيل: "هي" الجزء المقرر لمصلحة الجماعة على عصيانه أمر الشارع".(٣)
المقصود من العقوبة إصلاح حال البشر لأن الأوامر والنواهي و حدها لا تكفي لحمل الناس على الخير والطاعة دون وجود عقوبات رادعة لنفوس شرسة و قد أوجب الشريعة أنواعا من العقوبات لمصلحة الناس لأن الشارع كمثل الطبيب قد يضطر إلى عمل جراحي لاستئصال المرض من عضو المريض المتآكل لإنقاذ حياته قبل أن يستشري في سائر جسده.
و الحدود هي العقوبة المقدرة من الشارع حقا لله تعالى، و أن الجرائم الموجبة للحدود قيل خمسة و هي:

السرقه، الزنا، الشرب، السكر، القذف قيل: ست بإضافة قطع الطريق و قد زاد البعض، البغي، والردة والزندقه، و سب الله، و سب الأنبياء والملائكة، و عمل السحر.
و إنما أوجب الشرع العقوبة لأن النفوس المريضة التي لا تنفع معها جهود التهذيب والتقويم، ولا أساليب التبشير والإنذار يجب أن تعاقب رحمة بالناس من جرائمها.

فالعقاب الشرعي يهدف إلى:

- ردع المجرم عن ارتكاب الجرائم، و عن تكرارها والعودة إليها بعد التوقف.
- تلقين الآخرين درسا حتى لا تتجرأ المجموعات الأخرى على ارتكاب مثل هذه الجرائم.
- إنقاذ المجتمع من الثأر والثأر المضاد كما هو سائد في القبائل البدائية لأن مسلسل الثأر يقضي على الأخضر واليابس.

(١) العلاقة بين العولمة والجرائم ص: ٣٥.

(٢) الأحكام السلطانية ص: ٢٩٣.

(٣) التشريع الجنائي الإسلامي ٦٠٩/١.

و بهذا الطريق يطهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظنون فيقع في الإثم و يجعله نقيًا بريئًا من المواجهات والشكوك، يكنّ لإخوانه المودّة التي لا يحدشها ظن السوء، والبراءة التي لا تلوثها الأوهام والشكوك، والطمأنينة التي لا يعكرها القلق وتوقع المكروه، و ما أروع الحياة في مجتمع بريء من الظنون.

إن قوة الإنسان على التفكير والتدبر والاستنتاج والاستنباط تميّزه على غيره من الكائنات الحيّة و إن وصف الإنسان بالحيوان الناطق، عند المناطقة ليس إلا لهذا الشعور والإدراك. و "الفكر" كما يقول السيد الشريف الجرجاني أنه ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى المجهول^(١). و يقول الأصفهاني: إن الفكرة قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكير، جَوْلَان تلك القوة بحسب نظر العقل^(٢) و ذلك للإنسان دون الحيوان. و قيل: إن "الفكر" مقلوب عن "الفرك" لكن يستعمل "الفكر" في المعاني. و إن القرآن الكريم يحث على إعمال الفكر، أو التفكير في الكون و في آيات الله الماثلة في السموات والأرض.

فقد تكرر تعبير: {لعلكم تعقلون} (البقرة: ٧٣، الأنعام: ١٥١، يوسف: ٢، النور: ٦١) و {لقوم يتفكرون} (يونس: ٢٤، الرعد: ٣، النحل: ١١، ٦١، الروم: ٢١، الزمر: ٤٢، الجاثية: ١٣)

و {لقوم يفقهون} (الأنعام: ٩٨) إن الجدال في الله كان من ديدن المنافقين والمشرّكين في أول الأمر فكانوا يعارضون العقيدة الصحيحة و يجادلون بأساليب مختلفة يقول الله عزوجل:

{وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} (الرعد: ١٣)

و كانوا يتكلمون بما ينافي القدر فقالوا عن شهداء أحد: {لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا} (آل عمران: ١٥٦) و هذا إنكار صريح لقضاء الله و قدره كذلك قالوا: {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ} (النحل: ٣٥) و هذا إدعاء و تصريح بالجبر و تعليل لما كانوا عليه من الشرك و فساد العقيدة، و لكن الشرك الأكبر والنفاق في الدين كان غطاء فما رسموا مناهج خاصة حول العقائد التفصيلية لكن بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم و

(١) التعريفات ٢٥٦.

(٢) المفردات للأصفهاني مادة "الفكر".

لحرقه بالرفيق الأعلى بدأت المسألة تأخذ بعداً جديداً فقام معبد الجهني بتكوين جماعة من أهل الأهواء و تكلم في القدر و قال:

لا قدر والأمر أنف.(١)

و كان معبد الجهني قد تعلم ذلك من رجل نصراني أسلم ثم تنصر واسمه سنسوية.(٢)
ثم تعلم منه غيلان الدمشقي و نشر الفكرة بين المسلمين و قد أنكر مذهبه الصحابة رضي الله عنهم الذين كانوا أحياء في تلك الفترة و هم عبد الله بن عمر، و جابر بن عبد الله، وابن عباس و أنس بن مالك و ابن أبي أوفى و آخرون.(٣)
و قد قتل غيلان بسبب هذه العقيدة الفاسدة التي تتلخص في أن الإنسان يملك كامل الحرية في أفعاله ولا سلطان لأحد على إرادته.

و على عكس القدرية نشأت فرقة الجبرية التي تؤمن بأن الإنسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة فهو كالريشة المعلقة في الهواء.

و من الفرق الرئيسية أيضاً الشيعة، والمعتزلة والخوارج و كلها تفرعت إلى جماعات صغيرة.
إن ظهور هذه الفرق و اتساع رقعة العالم الإسلامي و دخول أهل الديانات الأخرى في الإسلام ثم ترجمة الكتب الفلسفية اليونانية إلى اللغة العربية أشعلت نار الفتنة و راجت سوق المناظرات والمجادلات و ألقت الكتب الجديدة، مستخدمة مصطلحات أهل المنطق والفلسفة و ظهر علما مستقلا يعرف بعلم الكلام واستخدمت كل فرقة لإثبات ما تعتقده أدلة منطقية.

فظهرت مسألة إنكار الصفات، والقول بخلق القرآن، و إنكار رؤية الله سبحانه يوم القيامة، و مبادئ العدل والتوحيد، و مسألة المتزلة بين المتزلتين وغيرها من القضايا والمسائل التي عكّرت صفو العقيدة الإسلامية و أحدثت فتنة التكفير والتبديع فتمزقت الأمة.

و بدأت تلعن بعضها بعضاً، و تكفّر و تبدّع بعضها بعضاً، واستغل الأعداء هذه الفرقة لتعميق الهوة بينها و إضعافها كأمة واحدة متماسكة ذات هبة و تأثير ثم الاستيلاء على بلادها و موارد خيراتها.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره المراء في الدين والجدل بين المسلمين.

فقد روي عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال:

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ذات يوم و هم يتراجعون في القدر، فخرج مغضباً حتى وقف عليهم فقال يا قوم! بهذا ضلّت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، و ضربهم

(١) تبیین کذب المفتری ص: ١٠.

(٢) میزان الاعتدال ١٤١/٤.

(٣) الفرق بين الفرق ١٥.

الكتاب بعضه ببعض، و إن القرآن لم يتزل لتضربوا بعضه ببعض، و لكن نزل القرآن فصدّق بعضه بعضاً، ما عرفتم منه فاعملوا به و ما تشابه منه آمنوا به.

و عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند باب رسول الله صلى الله عليه وسلم نتذاكر، يتزع هذا بآية و يتزع هذا بآية فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما يفقأ في وجهه حب الرمان فقال: يا هؤلاء بهذا بعثتم؟ أم بهذا أمرتم؟ لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض.^(١)

و كان الصحابة يعاقبون على فساد العقيدة فقد روي عن مولى ابن عمر أن صبيغا العراقي جعل يسأل عن أشياء من القرآن في أجناد المسلمين حتى قدم مصر، فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه فقال: أين الرجل؟ قال: في الرحل، قال عمر: أبصر أن يكون ذهب فتصيبك من العقوبة الموجهة، فأثاه فقال له عمر: عم تسأل فحدّثه، فأرسل عمر إليّ يطلب الجريد، فضربه بها حتى ترك ظهره دبرة، ثم تركه حتى برأ، ثم عاد له، ثم تركه حتى برأ، ثم دعا به ليعود له، فقال صبيغ: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلاً جميلاً، و إن كنت تريد أن تداويني فقد - والله - برأت فأذن له إلى أرضه، و كتب له إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن لا يجالس أحد من المسلمين فاشتد ذلك على الرجل فكتب أبو موسى إلى عمر أن قد حسنت هيئته فكتب أن ائذن للناس في مجالسته.^(٢)

و لما أرسل علي رضي الله عنه جيشاً لمعاقبة أهل النهروان من الخوارج مع أنهم كانوا متدينين "رأى منهم جباها قرحة لطول السجود" و أيديا كثفنت الأبل، عليهم قمص مرحضة وهم مشمرون.^(٣)

إن المحافظة على الأمن تتطلب إجراءات وقائية لمنع الجريمة قبل وقوعها و ذلك ليعم الصلاح بين الناس ولا يكون الفساد في الأرض.

قال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} (الأعراف: ٨٥)

يقول الإمام الماوردي عن الجرائم:

(هي) محظورات شرعية زجر الله عنها بحد أو تعزير ولها عند التهمة حالة استبراء تقتضيه

السياسة الدينية، و لها عند ثبوتها و صحتها حال استيفاء توجه الأحكام الشرعية.^(٤)

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبخاري عن أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١٥٢/٢.

(٣) فجر الإسلام ص: ٣٢١.

(٤) الأحكام السلطانية ٢٧٣.

إن اصطلاح منع الجريمة بمعناه الواسع يشمل كل ما من شأنه أن يمنع وقوع الجريمة فهو يشمل إزالة عوامل الجريمة و أسبابها سواء كانت هذه العوامل والأسباب فردية أو اجتماعية، و سواء كانت هذه الأدلة تقتضي علاج الخصائص البدنية والعقلية أو تقتضي علاج البيئة التي يعيش فيها الفرد، والمجتمع الذي يعمل في محيطه.^(١)

إن "الأمن الفكري" إنما يتحقق بإزالة الأسباب التي تؤدي إلى العنف والتطرف و لها عوامل خاصة بالفرد مثل:

- انحراف الفطرة.
- ضعف الإيمان.
- إتباع هوى النفس.
- و عوامل عائدة للبيئة مثل:
- الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه الفرد.
- عدم إقامة الحدود والعقوبات الشرعية.
- وجود إعلام مفسد و مؤثر تأثيراً سلبياً.
- وجود رفاق السوء.
- و هناك عوامل ذاتية في الإنسان تدفعها إلى حياة غير مستقيمة مثل:
- الوراثة.
- الذكاء.
- الأمراض النفسية.
- الأمراض الجسدية.
- الأمراض العقلية.
- إدمان الخمر والمخدرات.
- أما العوامل الخارجية التي لها تأثير على حياة الإنسان فهي:
- نظام الدولة.
- الأسرة.

(٤) ولاية الشرطة الاجتماعي في الإسلام ص: ٤٠١.

- المدرسة.
- الرفاق.
- كما أن العوامل الثقافية أيضاً لا يستهان بها في تكوين الإنسان وهي:
- التعليم.
- وسائل الإعلام.
- الوضع الاقتصادي.

أما معالجة الوضع أو إصلاح الأمر فيمكن بالاهتمام بالعلم قبل كل شيء لأنه العلم النافع هو ضمان "الأمن الفكري" و كما هو المعلوم أنه رغم وفرة أدوات تبادل المعلومات يوجد الشح في مجال العلم الشرعي الدقيق و مع كثرة المنتسبين إلى العلم هناك نقص حاد في صفوف الفقهاء الموثوقين. و قد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم إلى بعض ما يحصل في آخر الزمان حيث روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

"إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم و يثبت الجهل".^(١)

و عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"يتقارب الزمان و يقبض العلم و تظهر الفتن و يلقي الشح و يكثر الهرج قالوا: و ما الهرج؟ قال: القتل".^(٢)

كما ورد من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد و لكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فافتوا بغير علم فضلوا و أضلوا".^(٣)

أن ما يشاهد اليوم من كثرة المتشددين من الشباب المتدينين إنما يرجع سببه إلى أخذهم المعلومات الدينية عن غير مصادرها و عدم اهتمامهم بالتفقه في الدين مع العلم ان مجرد حفظ النصوص من الكتاب والسنة من غير توفر أدوات الفهم الصحيح لا يجعل الإنسان فقيهاً ولا يؤهله لأن يكون مرجعاً للفتوى.

و إلى هذه الحقيقة قد أشار النبي صلى الله عليه وسلم في تأكيده على أن يبلغ الشاهد الغائب لأن "رب حامل فقه غير فقيه" أو رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه".

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم ١٦ / ٢٢٢.

(٣) فتح الباري ١ / ١٩٥.

و هناك تأكيد على تلقي العلم من العلماء و أخذه عنهم لا كما يفعله بعض طلبة العلم اليوم من الاكتفاء بقراءة الكتب ثم الخروج بالآراء الشاذة والأفكار المنحرفة، فالواجب على الجميع أن يأخذ العلم من العلماء الراسخين لأن الجهل من أعظم الأسباب المؤدية إلى الغلو والاختلاف والتفرق.

و قد ينشأ الجهل عن سوء الفهم كما قال شارح العقيدة الطحاوية:

بل سوء الفهم عن الله عز وجل و رسوله صلى الله عليه وسلم أصل كل بدعة و ضلالة نشأت في الإسلام و هو أصل كل خطأ في الفروع والأصول لاسيما إن أضيف إليه سوء القصد.^(١)

و قد أورد الإمام البخاري في صحيحه حديث معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

"من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، و إنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله".^(٢)

كما نقل قول عمر رضي الله عنه: "تفقهوا قبل أن تسودوا" تحت عنوان باب الاغتياب في العلم والحكمة.

و قول ابن عباس رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم علّمه الكتاب".

و ورد أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم: "اللهم فقهه في الدين و علّمه التأويل".

و قد أشار إلى اختلاف استعداد الناس في الانتفاع من العلم الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية قبلت الماء فانبثت الكأ والعشب الكثير، و كانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا و سقوا وزرعوا، و أصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كالأ، فذلك مثل من فقه في دين الله و نفعه ما بعثني الله به فعلم و علّم، و مثل من لم يرفع بذلك رأسا و لم يقبل هدى الله الذي أرسلت به".^(٣)

فمن الطبيعي أن يكون هناك اختلاف في فهم النصوص {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} (يوسف: ٧٦) و كم من تفاوت بين مدارك الفقهاء فان لدى الأئمة الأربعة ثروة فقهية هائلة لما كانوا يملكون من مقدرة على الاجتهاد والاستنباط.

(١) شرح العقيدة الطحاوية ٣٩٢.

(٢) صحيح الإمام البخاري حديث رقم ٧١ كتاب العلم.

(٣) رواه البخاري تحت رقم ٧٩ في كتاب العلم.

فلا يمكن تحقيق "الأمن الفكري" ما دام كل واحد يفني، و ما لم يكن هناك اهتمام بالتأهيل الشرعي والتأصيل الفكري من أجل اعداد جيل يتمتع بوسطية الفهم و يتجنب الغلو والاندفاع و لديه من ضوابط لفهم النصوص والتعامل مع الأدلة المتعارضة.

و من الملاحظ في العقود الأخيرة كثرة اهتمام الشباب بمسألة تصحيح و تضعيف الأحاديث والآثار و هذا مؤشر ايجابي فان الإسناد من الدين و لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، و ان وجود علم الجرح والتعديل و فن أسماء الرجال من مفاخر الأمة الإسلامية و قد شهد بذلك الأعداء أيضاً، يقول المستشرق لويس شبرنغر (S PRENGER) في مقدمة كتاب "الإصابة في تمييز أحوال الصحابة" باللغة الإنكليزية:

"لم يشهد العالم في الأزمان الغابرة ولا الراهنة قوما أوجدوا فنا عظيما ذا شأن كبير مثل ما اوجد المسلمون فن "أسماء الرجال"، والذي نتمكن بفضل من معرفة أحوال و أخبار خمسمائة ألف شخص" (١) فالاهتمام بالإسناد و علم أسماء الرجال أمر مهم للغاية و لا اعتراض على ذلك و لكن هناك جانب آخر و هو أكثر أهمية بل هو الهدف الرئيس من هذه العلوم و هو فهم ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من الأحاديث فهما دقيقا و به يظهر التفاضل بين العلماء.

إن الإمام الخطابي، والإمام بن دقيق العيد، والإمام ابن تيمية و تلميذه الإمام ابن القيم والإمام ابن الهمام لهم تميز واضح في فهم النصوص و ربط بعضها ببعض و تنزيلها على الواقع فينبغي أن يكون الاهتمام بهذا الجانب أكبر لأن معظم الفتن تحدث بسبب التركيز على بعض الأحاديث مع الإغفال عن الأحاديث الأخرى أو عدم إعطاء الآيات القرآنية مكانها من الاستدلال. إن "الإيمان" تصديق بالجنان، و إقرار باللسان، و عمل بالأركان".

فالتدين الحقيقي يتحقق بجمع كل من الاعتقاد، والقول، والعمل، و إن النية وحدها المضمرة في القلب لا يمكن أن تعتبر "تدينا"، ما لم تظهر في أعمال محسوسة و سلوك متزن.

و هذا ما يفهم من قول النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان". (٢) و هذا الذي بينه النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه و يقول:

كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس، فأتاه جبريل فقال ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله و ملائكته و كتبه و بلفائه و رسله و تؤمن بالبعث.

(٢) الرسالة المحمدية ص: ٨١ طبعة دار القلم.

(١) سنن ابن ماجه ٢٦٣/١.

قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً و تقيم الصلاة، و تؤدي الزكاة المفروضة و تصوم رمضان.

قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. (١)
و من الناس من يفقد التوازن فيقع في إفراط و تفريط في تقييم الأمور فيبالغ و يشدد و يتفوق و يأتي بأفكار و أعمال هي غريبة و بعيدة مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قد منع من الغلو، و من التنطع، و من انتهاج منهج التشدد في الدين.
و من ذلك ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون. يقول الإمام النووي في شرحه: أي المتعمقون المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم و أفعالهم. (٢)
و عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
إن الدين يسر و لن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا و قاربوا و أبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة و شيء من الدلجة. في شرح هذا الحديث.

نقل الإمام ابن حجر عن ابن المنير: أن هذا الحديث علم من أعلام النبوة فقد رأينا و رأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدين ينقطع، و ليس المراد منع طلب الكمال والأكمل في العبادة، فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملل أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل. (٣)

و قال: و إياكم والغلو في الدين. (٤)
يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله:

و هذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال. (٥)

بين العقل والنقل:

يقول الإمام الشاطبي:

إن الله جعل للعقول في إدراكها حداً تنتهي إليه لا تتعداه و لم يجعل لها سبيل الإدراك في كل مطلوب. (٦)

(٢) صحيح الإمام البخاري حديث رقم ٥٠ كتاب الإيمان.

(١) رواه مسلم مع شرح النووي ٢٢٠/١٦.

(٢) فتح الباري ١١٧/١ - ١١٨.

(٣) رواه أحمد ٢١٥/١.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ٢٨٩/١.

(٥) الاعتصام ٣١٨/٢.

و يقول ابن خلدون:

العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور الآخرة، و حقيقة النبوة، و مثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال. و هذا لا يدل أن الميزان في أحكامه غير صادق لكن العقل قد يقف عند حده ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله و بصفاته فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه.^(١) و إن الأمن الفكري كما يحتاج إلى ضبط المتشددین والغلاة من المتدينين كذلك يتطلب الأمر إلى وضع الحد لتطرف العلمانيين والوجوديين والحداثيين فان نزعة العقلانية الزائدة تؤدي إلى التشكيك في النصوص الثابتة و تأويلها تأويلاً لا يرضى بها قائلها.

و هناك ميزان دقيق لوضع الأمور في حدودها و قد أبدع في إيضاحها الإمام ابن تيمية رحمه الله في كتابه موافقة "صريح المعقول بصحيح المنقول" أو درأ تعارض العقل والنقل، فالعقل هو أساس التكليف في الإنسان فلا تكليف على مجنون فقد عقله، ولا صبي لم يكتمل عقله، لكن الوحي هو أساس العلم و إن ما جاء به القرآن الكريم هو تنزيل من حكيم حميد الذي لا يعزب عن علمه شيء فلا شأن للعقل من إنكار ما جاء به الوحي و ما ثبت من الدين بالضرورة.

لقد أضرت "الفلسفة اليونانية" في الإلهيات المسلمين كثيراً لأنها فتحت باباً واسعاً للجدال في الغيبات و كانت مصداق:

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} (الحج: ٨)

و ان ترجمتها إلى اللغة العربية في عصر الخليفة العباسي "المأمون" أشعلت معارك عقديّة بين المعتزلة و أهل السنة، كما عمقت الخلافات بين الطوائف المنحرفة من القدرية والجبرية والجهمية والمرجئة والكرامية إضافة إلى الشيعة والخوارج.

و كان هذا الأثر مقدراً من أعداء الإسلام فمن القصص المعروفة أن المأمون حينما طلب تلك الكتب من ملك الروم فرفض و بعد إصراره استشار الكاهن المسئول عن المكتبة فحبذ الفكرة و شجع الملك على إرسال الكتب إلى خليفة المسلمين قائلاً: "ما تدخل هذه الكتب في أمة إلا و تفسد عقيدتها"

و قد شوهد هذا التأثير عياناً في المناقشات التي جرت بين المتكلمين من الفرق المختلفة. إن الإسلام دين العلم، ولا يمانع من الاستفادة من ثقافة أية أمة بل يعتبر "الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها" لكن مجال العقيدة مصون بالوحي فلا مجال لترقيع العقيدة من أفكار أمم وثنية وغيرها.

(١) مقدمة ابن خلدون ص: ٣٦٤-٣٦٥.

إن الدين عند الله هو الإسلام و قد أكمله الله سبحانه على خاتم النبيين وضمن له الحفاظ من أي تغيير أو تبديل أو تحريف.

إن الأديان السماوية السابقة كانت تحمل العقيدة الأساسية نفسها لكن أتباعها قد غيروا و بدلوا فلا مجال للاستقاء منها ولا جديد لديها يمكن الاستفادة منها. إنما مجال الاستفادة من الأمم الأخرى هي علوم الطبيعة عموماً، والعلوم التجريبية والعلوم الصناعية الأخرى فلا حظر عنها في الشريعة الإسلامية ولا خير في التراث الروحي والإيماني والأخلاقي للأمم الأخرى فقد جاء الإسلام بما هو الأعلى والأفضل والأصلح والأوفى بالفطرة الإنسانية.

إن تحقيق "الأمن الفكري" يتطلب إقامة سياج أمني لتكوين جيل من خلال إعداد منهج تعليمي و تربوي ضامن لحمايته من الانزلاق الفكري أو الحركي و ذلك:

- بتأهيل الشباب تأهيلاً شرعياً يمكنه من التعامل مع النصوص الشرعية والترجيح بين الأدلة المتعارضة عن كفاءة.

ثم إن مصطلحات الجهاد، الموالاة، التكفير أصبحت مصطلحات ذات حساسية و خطورة لما وقع في شرحها من إفراط و تفريط فيجب إيجاد شرح دقيق و متوازن لهذه المصطلحات لا يلغي مكانتها في قلوب الناس ولا تقضي على أهميتها كما لا يجعلها أداة في أيدي الشباب الغر من المتدينين لإثارة الفتنة بين المسلمين و إزهاق أرواح الأبرياء من أبناءهم بدفعهم إلى معارك لم تتوفر فيها الشروط الشرعية اللازمة.

- إن المسلمين يتميزون بإيجاد علمين مهمين من بين العلوم الكثيرة التي أوجدوها لخدمة الكتاب والسنة وهما:

١- علم مصطلح الحديث

٢- علم أصول الفقه.

الأول منهما يعطي للإنسان المسلم الذي يمارسه و ينتفع به منهجا عادلا، و ميزانا دقيقاً للتمييز بين المقبول و غير المقبول من العلم المأثور، فيجعل جميع ما يصله من أحاديث و آثار و أخبار على ذلك الميزان ليميز بين الصحيح والضعيف والمقبول و غير المقبول منه.

ثم نظام تقسيم الأخبار والأحاديث إلى متواتر و آحاد و عزيز و غريب و صحيح و ضعيف يمكنه من وضع حديث في مكانه.

أما "علم أصول الفقه" فيعطي ميزانا دقيقا آخر لفهم النصوص دون وكس ولا شطط و يعلمه طريقة تحقيق المناط، و تخريجه، و تنقيحه، و التفريق بين المفهوم والمنطوق، و بين ما هو الثابت بعبارة النص و إشارة النص، أو اقتضاء النص.

فإذا أخضع الإنسان ما لديه من معلومات شرعية لهذين العلمين و ما فيهما من ضوابط لقبول النص و فهمه فلا يقع في الإفراط والتفريط في الأفكار الدينية والمفاهيم الشرعية بإذن الله.

أما المنهجية في إيضاح الحقائق، و بناء العقول السليمة في التعامل مع الآخرين فيحتاج الأمر

إلى:

- إزالة التوحش لدى البعض من التعامل مع غير المسلمين في شئون الحياة و ذلك ببيان أن المشاركة مع غير المسلمين في الأمور التجارية والمعاملات المالية من البيع والشراء والإيجار والرهن أمر مباح و شائع و مأثور منذ زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولا يمنع من التعامل إلا ما هو محرم مثل التعامل بالربا والمخدرات والخمر و لحم الخنزير و ما شابه ذلك.

أما الضابط العام للتعامل مع غير المسلمين وبيان حدوده فهو ما أوضحه بعض الفقهاء

المحققين وعلماء الدين الأعلام بدقة وبراعة.

يقول الإمام العلامة الفقيه الشيخ أشرف على التهانوي رحمه الله كما نقل عنه العلامة المحدث

الشيخ ظفر أحمد العثماني رحمه الله في أحكام القرآن:

المعاملة مع الكفار على ثلاثة أنحاء:

أحدها: الموالاة أي المودة.

والثاني: المداراة أي إظهار حسن الخلق لهم.

والثالث: المواساة أي إيصال النفع إليهم بإعطاء المال ونحوه.

أما الموالاة: فلا تجوز إطلاقاً وهي المنهي عنها بقوله تعالى { " # \$ % پ پ پ * + , - . / 0 1 2 3 { المائدة: ٥١ } وبقوله تعالى: { أ " # \$ % پ پ پ { الممتحنة: ١ .

أما المداراة فتجوز في مواضع ثلاثة: الأول لدفع الضرر والثاني لمصلحة الكافر في دينه أي إذا رجا هدايته للإسلام بالمداراة والثالث لإكرامه إذا كان ضيفاً من الوجهاء. ولا تجوز لمصلحة نفسه من جلب مال أو جاه ونحو ذلك لاسيما إذا احتملت الإفشاء إلى الضرر في الدين والمراد بالموالاة في قوله تعالى: { لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ } هي المداراة ولذا استثنى منها حال دفع الضرر بقوله: { إِلَّا أَنْ تَكْتَفُوا مِنْهُمْ ثِقَةً } آل عمران: ٢٨ وأما في غيره من الآيات فالموالاة على حقيقتها ولذا لم يستثنى منه شيء.

ودليل جواز المداراة لمصلحة دين الكافر قوله تعالى في سورة عبس: { 6 7 8 9 } ومحل الإنكار إنما هو تقديم الكافر على المؤمن لا مجرد مداراته والتصدي له ودليل جوازها لإكرام الضيف ما ورد في وفد بني ثقيف انه صلى الله عليه وسلم أنزلهم في المسجد. ودليل حرمتها لمصلحة نفسه من جلب مال أو جاه قوله تعالى: "أَيَّتِفُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ؟" وأما المواساة فلا تجوز لأهل الحرب وتجوز لغيرهم من أهل الذمة ومن هو مثلهم صرح به في سورة الممتحنة بقوله: { ا ج ح } إلى قوله { v u t } وعبر هناك عن المواساة بالتولى مجازاً وقرينة هذا الجاز { Y X W V } وإنما تجوز المداراة إذا غلب على الظن وقوعه. وأما مجرد التوهم فلا عبرة به وهو محل الإنكار في قوله تعالى { I G F E D } المائدة: ٥٢ وهذا هو حكم المداراة مع الفساق وأهل الأهواء ونحوهم. (١) أما الاستعانة بغير المسلمين فقد:

- استعان الرسول صلى الله عليه وسلم بصفوان بن أمية وهو مشرك يوم حنين.
- واستعان بيهود بنى قينقاع وجعل لهم نصيباً من الغنيمة.
- واستعان برجل من خزاعة ليكون عيناً على قريش.

من أجل ذلك يرى الحنفية والشافعية وابن عبد البر من المالكية والحنابلة في الرأي الآخر عندهم الاستعانة بغير المسلمين بشروط معينة وقد حالف الرسول صلى الله عليه وسلم اليهود يوم دخل المدينة. ومدح المشاركة في حلف الفضول ودخل في جوار المطعم بن عدى حين عودته من الطائف

(١) أحكام القرآن للتهانوي ١٥/٣ - ١٦.

وهذا يدل على جواز التحالف مع الكفار وإعطاء التمثيل للكافر في المجالس النيابية وغيرها إذا كان في صالح المسلمين.

بين الدين والسياسة:

- إن "السياسة" من الدين و لكن "الدين" كله لا يقتصر على "السياسة" فيجب إيضاح هذه الحقيقة حتى لا يقع الشباب في أخطاء وقع فيها بعض المفكرين الإسلاميين و زعماء الحركات الدينية فأدى تركيزهم على الجانب السياسي إلى عكس القضية في تحديد مهمة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام حيث يقول السيد أبو الأعلى المودودي مثلاً:

"فغاية مهمتهم في الدنيا إقامة الحكومة الإلهية وتنفيذ نظام الحياة بجميع أجزائه كما جاؤا به من عند الله، وهذه هي الغاية التي فرض الإسلام من أجلها العبادات: الصلاة والزكاة والصوم، والحج، والتعبير عنها بالعبادة لا يعني أنها هي العبادة وحدها بل معنى ذلك أنها تعد الإنسان لتلك العبادة: (إقامة الحكومة الإلهية) فكأنها مقررات تدريبيه لازمة لها. (١)"

فهنا يلاحظ بعض الناقدين من أهل العلم بأن الوسيلة تحولت إلى الغاية والغاية أصبحت وسيلة. يقول العلامة سليمان الندوي الذي يعتبر الحكم في الإسلام أعظم نعمة من الله بعد الوحي والشرائع دون أن يذكر اسم المودودي:

"لا يوجد حرف واحد في سائر تعاليم الإسلام يدل على أن قيام الحكومة هو الهدف الأساسي لهذه الدعوة وان العقائد والأعمال والشرائع والأحكام والحقوق والواجبات كلها تمهيد لتحقيق هذا الهدف، بل الصحيح الثابت ان الشرائع والحقوق والواجبات هي الغاية وقيام الحكومة الصالحة ضمان لاستمرار هذه الأمور وسهولة أدائها وعدم ضياعها فالحكومة مطلوبة في الدين عرضاً لهذا السبب" (٢) ومما لا شك فيه أن المودودي في تحديد مفاهيم المصطلحات الأربعة للقرآن الكريم قد وقع في بعض المبالغات بسبب الظروف السياسية التي عاش فيها ومشاهدته لإهمال جانب من الدين من قبل الدعاة وعامة الناس وشقاء المسلمين تحت نير الاستعمار الأجنبي لكافة أقطار العالم الإسلامي ومن هنا جاء توسعه في النقد ومثاليته الزائدة في تصور الحكم الإسلامي وتحديد خصائص الدولة الإسلامية بحيث لا تكاد تتوفر في أي عصر من العصور وحتى الخلافة الراشدة لا تبقى كاملة المعالم حسب مقاييسه ويتجلى ذلك واضحاً في كتابه "الخلافة والملكية" والذي أثار ضجة كبيرة كما أن هذا الاتجاه دفع البعض إلى تتبع مظاهر الجاهلية في حياة أبي بكر وعمر وغيرهما من الراشدين. (٣)"

(١) خطبات مودودي نقلاً عن حوار بين الدعاة الأعلام ص: ٤٣ / أحمد محمد جمال.

(٢) السيرة النبوية ٤٧/٧.

(٣) الإسلام والجاهلية لصدر الدين الإصلاحي.

كما أن هذه المثالية دفعته إلى الحكم بفشل كافة المجددين ورجال الدعوة والإصلاح والتصور بأن منصب المجدد الكامل مازال شاغرا. والواقع أنه لو أخذ النجاح في إقامة الحكومة الإلهية مقياسا لفوز الدعاة ونجاح الدعوة فسوف يؤدي ذلك إلى القول بفشل معظم الأنبياء والرسل أيضا في مهمتهم - والعياذ بالله - ولم يقصد المودودي ذلك بالتأكيد غير أن المثالية في تصور الحكم جعل قيام الحكومة الفعلية مقياساً للنجاح يضمن نتائج خطيرة وقد يرجع الحكم على مسيرة الجماعة الإسلامية نفسها بأنها لم تنجح في تحقيق مهمتها مع أن الواقع يشهد بأن الجماعة لم تال جهداً في أداء دورها.

"حاكمية الإله" في التكوين والتشريع حقيقة لا ينكرها مؤمن و إن تطبيق الشريعة الإسلامية فريضة على الناس غير أن الإيمان بهذا المبدأ لا يعني الإصرار على نفي السلطة من البشر فيما لا صلة له بالدين وقصة الخليفة الراشد على بن أبي طالب رضي الله عنه مع الخوارج حينما رفعوا شعار "لا حكم إلا لله" معروفة حيث رد عليهم بقوله "كلمة حق أريد بها الباطل" و السيد المودودي نفسه يقرر "خلافة الجمهور" ويرى أن الأغلبية من الناس هي التي تقوم بانتخاب رئيس الدولة الإسلامية وعزله.^(١) إذن لا يبقى للإصرار على نفي السلطة من الشعب معنى ويصير الخلاف اصطلاحيا فقط لا فاصلا بين الإيمان والكفر كما يشعر ظاهر كلامه.

ومن ناحية ثانية قد طغى التركيز على صفة الحاكمية لله سبحانه على صفاته الأخرى وأسمائه الحسنى ولا شك أن هذا نوع من المغالاة جاء لدى المودودي بسبب حماسه الشديد لإقامة "الحكومة الإلهية" وظهرت آثاره في أماكن من تفسيره وكتابات.^(٢)

و هذا الطرح الفكري قد أثر في العديد من المفكرين العرب من زعماء الحركات الإسلامية كما أثر في توجيه بعض الشباب إلى أن لا هم لهم غير استعادة المجد السياسي والاحتكاك الدائم مع السلطات القائمة و ما نتج عنه من مآسي لا يحتاج إلى بيان.

و في ضوء ما سبق تعين أن من أسباب الخلل في جانب "الأمن الفكري":

- _____ الشحن العاطفي للجيل الصاعد مع فقد أو ضعف التأصيل الشرعي.
- _____ تأثر الناس من برامج وأنشطة الحركات السياسية غير المأصلة تأصيلا شرعيا صحيحاً.
- _____ عدم وضوح الرؤية حول مفهوم الجهاد، والولاء والبراء وعدم التمييز بين الموالاة والمداراة والمؤاساة لدى كثير من الدعاة والمفكرين.

_____ ثقافة الأخذ بظاهر النصوص من غير الالتفات إلى ضوابط فهم النصوص لدى سلف الأمة.

(١) الخطأ في التعبير لوحيد الدين خان.

(٢) تفسير سورة يوسف و سورة الشورى من تفهيم القرآن مثلا.

و من أجل بناء سياج "الأمن الفكري" و حماية البلاد والعباد من الفتن والكوارث المتلاحقة
ينبغي اتخاذ الخطوات التالية:

_____ إعداد برامج تربوية لإعداد جيل محصن من الإنفعالات غير المنضبطة والتأثيرات
الخارجية.

_____ إعداد الفقه الوقائي أو (فقه الحالات الخاصة) للتعامل مع الأوضاع العالمية الراهنة.

_____ بيان الأحكام الشرعية في شناعة قتل الأنفس و إثارة الفتن في المجتمعات الآمنة.

هذه وغيرها من التدابير الواقية سوف تساعد بإذن الله في نشر ثقافة "الأمن الفكري" والله ولي

التوفيق،،،

بدر الحسن القاسمي

نائب رئيس مجمع الفقه الإسلامي بالهند

(المقيم بدولة الكويت)